موضوع المحاضرة:

البلاغة: مفهومها ونشأتها وتطورها وفروعها

«اعلم – علّمك الله الخير، ودلّكَ عليه، وقيَّضه لك، وجعلك من أهله – أنّ أحقّ العلوم بالتعلم، وأوْلاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله – جلّ ثناؤه – عِلْم البلاغة، ومعرفة الفصاحة»[1] . وهو، فضلا عن استهدافه تكوين ذائقة فنية لدى المتعلمين، يعلمهم سبل إدراك الجمال، وإنتاج كلام يتصف بالجمال؛ ذلك بأن البلاغة – كما قال أحدهم – «زينة تاج العربية، ودليل سلامة لسانها، وزخرفة كلامها، وحِلْية ألفاظها»[2].

–أبو هلال العسكري–

البلاغة «من مواد التذوق الجمالي التي تعتمد، في إدراكها، على الإحساس وتربية الذوق. فهي فنّ لا علم؛ ولذلك يجب ربطها، عند تدريسها، بالأدب؛ لأنه أساسها وقوامها»[3].

1–لمحة تاريخية عن نشأة علم البلاغة:

بلغ العرب في الجاهلية مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان، وقد صوّر القرآن ذلك في أكثر من موضع[4]، كما صوّر شدّة عارضتهم وقوتهم في الحجاج والجدل. ومن أكبر الدلائل على ما حذقوه من حسن البيان أنْ كانت معجزة الرسول محمد وحجته القاطعة لهم أنِ دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن في بلاغته الباهرة. وهي دعوة تدلّ على ما أوتوه من اللّسن والفصاحة والقدرة على حوكِ الكلام، كما تدل على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني، وتبيّن ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير. يروى أنّ الوليد بن المغيرة* أحد خصوم الرسول الألداء استمعَ إليه وهو يتلو بعض آي

---

[1] أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، حققه وضبط نصَّه: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.2، 1989.

[2] فيصل حسين طحيمر العلي: البلاغة الميسّرة في المعاني والبيان والبديع، دار الثقافة، عمّان، ط 1995، ص 9.

[3] سعاد عبد الكريم الوائلي: طرائق تدريس الأدب والبلاغة والتعبير بين التنظير والتطبيق، دار الشروق، عَمّان، ط.1، 2004، ص 53.

[4] من ذلك قوله تعالى: ﴿الرحمن علم القران خلق الانسان علمه البيان﴾[سورة الرحمن، الآيات 1 إلى4] –﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ [سورة المنافقون الآية 4]–﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ [سورة البقرة، الآية 204]–﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾ [سورة الأحزاب، الآية 19]–﴿ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون﴾ [سورة الزخرف، الآية 58]

*الوليدُ بن المُغيرَة هو والد الصحابيين خالد بن الوليد والوليد بن الوليد بن المغيرة. وهو أحد زعماء قريش أدرك البعثةَ ولان قلبُه لما سمع القرآن. لكنه مات ولم يُسلم.

القرآن، فقال: (والله لقد سمعتُ من محمد كلاما، ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق)[1].

[شرح: أعلاه أوله وأسفله آخره، أو أعلاه سطحه ولفظه وأسفله أعمقه ومعناه. والمُغدقُ من الفعل أَغْدَقَ نحو: أغدَقَ المطرُ يُغْدِق إغْداقاً فهو مُغْدِق، إذا صَبَّ بكثرة وأفاضَ وأخصبَ الأرضَ وغمَرَها. والمُثمر من الإثمار وهو ما أثمَر وأينَعَ ودَنا قِطافُه. والطُلاوة: الطلاء والغشاء وما يَغْشَى الأذُنَ فيُحدثُ فيها الطربَ وما يغشى البصرَ فيُحدث فيه البريقَ والجمال. والطُّلاوة الحُسْنُ والبَهْجَةُ والقَبولُ في النَّامي وغير النامي تقولُ: حديثٌ عليه طُلاوةٌ. والقُرآن فيه هذه المزايا التي تملأ السمع والبصر والفؤادَ]

كان الاهتمام بالبلاغة ضاربا في التاريخ، وكان العرب مع ولعهم بالكلمة والشعر يولون عنايةً فائقة للبلاغة وألوانها؛ لأن تنافسهم في ميدان الشعر دفع إلى بروز النقد ممزوجا بموضوعات البلاغة، وقد كانت تُنصبُ خيمة حمراء للحطيئة في عكاظ، فيعرضُ الشعراء عليه أشعارهم، فمن أحسنَ وأجادَ طار شعره في الآفاق، يقول بدوي طبانة: «إنّ المتقدمين كانوا يسمون علن البلاغة وتوابعها بعلم نقد الشعر وصنعة الشعر ونقد الكلام، وفيه ألّف أبو هلال العسكري كتابا سماه الصناعتين ويعني بذلك النظم والنثر، وألّف قدامة بن جعفر الكاتب كتابا سماه نقد الشعر»[2].

وللبلاغة العربية مراحل أربعة تنقلت بينها، هي مرحلة النشأة والنمو والازدهار والذبول، فقد بدأت في شكل ملاحظات بسيطة كان ينثرها العرب في الجاهلية. وأخذت هذه الملاحظات تكثُر مع رقي الحياة العقلية العربية بعد الإسلام. لا سيما في العصر العباسي، بدعم من الشعراء والكتاب واللغويين والمتكلمين. ونشطت بيئات مختلفة في تنمية مباحثها، منها المحافظ المسرف في محافظته، ومنها المجدد المسرف في تجديده، حتى لَيُحَاوِل إخضاعها لمقاييس البلاغة اليونانية. وسرعان ما وضع ابن المعتز أول كتاب في البديع، وأضافَ قدامة إليها فنونا جديدة. وواصل المتكلمون مباحثهم ي الاعجاز البلاغي القرآني راسمين بذلك حدود كثير من الصور البيانية والبلاغية وفروعها المتشعبة. والأمر نفسه مع النقاد من جهة، والأدباء في صنعتي الشعر والنثر من جهة أخرى. كل ذلك ساهمَ في نمو مباحث البلاغة نموا واسعا[3].

---

[1] شوقي ضيف، البلاغة تاريخ وتطور، ص9. وهذه الصفات التي ذكرَها الوليدُ بن المغيرة انطباع أول تلقّاه عند السماع، ولو استغرقَ الوليدُ سنينَ لقال صفات كثيرةً في القرآن الكريم.

[2] ينظر: محاضرات البلاغة لمحمد عاشوري.

[3] بتصرف بسيط عن: البلاغة تاريخ وتطور، شوقي ضيف، ص5، 6.

ثم ازدهرت هذه المباحث أكثر على يد عبد القاهر الجرجاني، إذ استطاع بعبقريته الفذّة أن يضعَ علمي المعاني والبيان وضعا دقيقا، وقد استضاءَ بأفكار سابقيه فجمعها وأخضعها للتحليل العقلي والنفسي البصير، وسوّى منها نظرية مرتبة مفصلة، تَضُم أجزاءَها المتفرقة، وتُصَوِّر دقائقَها الغامضة.

وتلت مرحلة الازدهار والنمو مرحلة الملخصات والشروح والتعقيد والجمود، من ذلك تلخيص الرازي لمباحث عبد القاهر، مضيفا لها من الفلسفة والمنطق والكلام ما عقّده به تعقيدا. ولخص السكاكي كذلك عبد القاهر في كتابه "المفتاح". كما أتت شروح أخرى لا تكاد تضيف جديدا. كذلك لخص الخطيب القزويني مختصر السكاكي(أي ملخص لملخص)...وهكذا تكاثرت الشروح والتصانيف، والتي صار غالبها صورا مكررة مملة[1].

وأول من ألف في البلاغة أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 208هـ) تلميذ الخليل، حيث صنّف كتابه "مجاز القران"، ثم أتت بعده المصنفات تباعا. وهذه المصادر جميعا تعود إلى أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية، وهي أصولٌ لما جاء بعدها، لا يمكن أن يُفهمَ ما بعدها إلا بالرجوع إليها، وتعود إلى مرحلة التأسيس والتأصيل والبحث عن نظرية عربية في النقد والبلاغة. نذكر منها:

-"**البيان والتبيين**" و"**الحيوان**" للجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) (ت255هـ): وفيهما إشارات بلاغية ونقدية مهمة.

-"**البديع**" لعبد الله بن المعتز (ت322هـ): وهذا أصل عظيم من أصول البلاغة العربية، جعله خمسة أقسام: الاستعارة –التجنيس–المطابقة.

-"**نقد الشعر**" لقدامة بن جعفر(ت337هـ): وقد ألفه ليكمل النقص الذي لاحظه في كتاب الجاحظ. ويعد هذا الكتاب من أكثر الكتب تأثيرا فيما جاء بعده، حيث لا يخلو كتاب من الاقتباس منه والاعتماد عليه. حقق بأكثر من تحقيق، فقد حققه في ثلاثينيات القرن الماضي محمد عيسى مَنُّون، وكمال مصطفى، والخفاجي، وغيرهم.

-"**النكت في إعجاز القرآن**" لعلي بن عيسى الرماني(ت386هـ) أحد أعلام المعتزلة*: ومن هذه النكت البلاغة، وجعلها مستويات، أعلاها بلاغة القرآن، والوسطى بلاغة النبي صلى الله عليه وسلّم، والدُنيا بلاغة البلغاء.

---

[1] بتصرف عن: المرجع نفسه، ص6.

* المعتزلة: فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في البصرة في أواخر العصر الأموي، وقد ازدهرت في العصر العباسي. وقد لعبت دوراً رئيسياً سواء على المستوى الديني والسياسي، غلبت عليها النزعة العقلية، فاعتمدوا على العقل في تأسيس عقائدهم، وقدموه على النقل، وقالوا بالفكر قبل السمع، ورفضوا الأحاديث التي لا يقرها العقل حسب وصفهم، وقالوا بوجوب معرفة الله بالعقل ولو لم يرد شرع بذلك، وإذا تعارض النص مع العقل قدموا العقل لأنه أصل النص، ولا يتقدم الفرع على الأصل، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، فالعقل بذلك مُوجبٌ وآمرٌ وناهٍ، لذلك فإنهم قد تطرفوا، وغالَوا في استخدام العقل، وجعلوه حاكماً على النص، بعكس أهل السنة الذين استخدموا العقل

-"**كتاب الصناعتين الكتابة والشعر**" لأبي هلال العسكري(395هـ): تحدث فيه عن السجع والتشبيه والايجاز والبديع.

-"**العمدة في محاسن الشعر وآدابه**" لابن رشيق القيرواني(463هـ): وفيه مائة باب، جمع فيه كل ما قدمه من سبقه، وأضافَ إليها.

-"**دلائل الاعجاز**" وفيه علم المعاني، و"**أسرار البلاغة**" وفيه علم البيان لعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ).

-"**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**" للزمخشري جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (ت538هـ): تناولَ فيه جوانبَ من البلاغة، وقيلَ إنه أوّل من ميز بين علم المعاني وعلم البيان. يقول شوقي ضيف:(البلاغة اكتملت على يد الجرجاني والزمخشري، ومن جاء بعدهما جمع على ما عندَ السابقين).

-"**مفتاح العلوم**" لأبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السّكاكي(ت626هـ): جعله ثلاثة أقسام، الأخير منه للبلاغة، وهو أوّل من فصل موضوعات المعاني عن موضوعات البيان، وقد احتفى العلماء بكتاب السّكاكي شرحا ونظما وتلخيصا، وممّن اعتنى به الخطيب القزويني، حيث اختصره في "التلخيص"، ثم وضع لهذا التلخيص شرحا وافيا سماه "الايضاح"، وجاء بعده بدر الدين بن مالك وهو ابن صاحب الألفية محمد بن مالك، فاختصر مفتاح السكاكي، وهو أول من قسّم البلاغة إلى أقسامها المعروفة الآن: المعاني والبيان والبديع.

هذا ما يعني أنّ البلاغة مرت -كغيرها من العلوم-بمراحل عديدة، أولاها بظهورها في الخطاب الإبداعي الشعري والنثري، ثم قضية إعجاز النص القرآني، وارتباط ذلك بالبلاغة، ثم مرحلة ثالثة تأسس فيها علم البلاغة بأقسامه الثلاثة المعروفة.

وهذه بعض الرسائل والكتب التي تناولت قضية إعجاز القرآن الكريم، وبها كانت البداية الفعلية للفكر المنطقي والجمالي والمعرفي للبلاغة:

-"**إعجاز القرآن**" لأبي عبيدة (ت207 هـ).

- نظم القرآن للجاحظ.

- "**إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه**" للواسطي المعتزلي (ت 306هـ).

- "**كتاب الرد على من نفى المجاز من القرآن**" للحسن بن جعفر.

وسيلة لفهم النص، وليس حاكماً عليه. ومن أشهر المعتزلة الزمخشري صاحب تفسير الكشاف، والجاحظ، والخليفة المأمون، والقاضي عبد الجبار. وللاعتزال دواع دينية وسياسية.

-"**إعجاز القرآن**" لمحمد بن الطيب أبي بكر الباقلاني (ت 403).

-"**دلائل الاعجاز**" لعبد القاهر الجرجاني.

-"**نهاية الايجاز في دراية الاعجاز**" لفخر الدين الرازي (ت 606هـ).

ومن البلاغيين الذين أسسوا هذا العلم وطوروه وقسموه وصنفوه، وأبدعوا في مصطلحاته، ومختلف قضاياه وظواهره الأسلوبية، من خلال مؤلفات غير تلك التي ذكرناها آنفا، نذكر:

-تفسير ابن المقفع للبلاغة* (ت142هـ).

-"**صحيفة بشر بن المعتمر**" (ت 210هـ): في تعليم أساليب الكتابة والخطابة. وقد وردت صحيفته المختصرة أول ما وردت في كتاب البيان والتبيّن للجاحظ، ووردت كذلك في كتاب الأخبار الموفقيات، وفي كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وفي كتاب الصناعتين للعسكري، وفي العمدة لابن رشيق، وغيرهم.

-"**وصية أبي تمام**"(188هـ-231هـ) للبحتري(205هـ-284هـ)*: الواردة في كتاب زهر وثمر الألباب الآداب للحصري القيرواني(ت453هـ)، وفي كتاب معاصره أيضا ابن رشيق في "العمدة في محاسن

---

* يروي الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" أنه «لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط. سئل: ما البلاغة؟ قال البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائلَ. فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والاشارة إلى المعنى. والايجاز هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال، وليكن في صدر كلامكَ دليل على حاجتك، كما أنّ خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفتَ قافيته».

* نص الوصية كما ورد في العمدة:

" قال أبو عبادة الوليدة بن عبيد البحتري: كُنتُ في حَداثَتي أرُومُ الشِّعْرَ، وكنتُ أَرْجِعُ فيهِ إلَى طَبْعٍ، ولَمْ أَكُنْ أَقِفُ علَى تَسْهيلِ مَأْخَذِهِ، ووجُوهِ اقْتِضابِه، حتى قصدتُّ أبا تَمَّامٍ، وانقطعتُ فيه إليه، واتَّكلْتُ في تَعريفِه عليه؛ فكانَ أوَّل ما قال لي:

يا أبا عُبادة؛ تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليلُ الهُمومِ، صِفْرٌ من الغُمومِ. واعْلَمْ أنَّ العادةَ في الأوقاتِ أن يقصدَ الإنسانُ لتأليفِ شَيْءٍ أو حِفْظِه في وَقْتِ السَّحَرِ؛ وذلكَ أنَّ النَّفْسَ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ الرَّاحةِ، وقِسْطَهَا مِنَ النَّوْمِ. فإنْ أردتَّ النسيب؛ فاجْعَلِ اللَّفْظَ رَقيقا، والمعنَى رَشيقًا، وأَكْثِرْ فيه مِن بَيانِ الصَّبابةِ، وتوجُّعِ الكآبَةِ، وقَلَقِ الأَشْوَاقِ، ولَوْعَةِ الفِراقِ. وإذا أَخَذْتَ في مَدحِ سيِّدٍ ذي أيادٍ؛ فأَشْهِرْ مَناقِبَهُ، وأَظْهِرْ مناسِبَه، وأَبِنْ مَعالِمَهُ، وشرِّفْ مقامَهُ. وتقاضِ المعانيَ، واحْذَرِ المجهولَ مِنْها. وإيَّاكَ أن تَشينَ شِعْرَكَ بالألفاظِ الزرية، وكنْ كأنَّكَ خيَّاطٌ يقطعُ الثِّيابَ علَى مَقاديرِ الأجسام. وإذا عارَضَكَ الضَّجَرُ؛ فأَرِحْ نَفْسَكَ، ولا تعملْ شِعْرَكَ إلاَّ وأنتَ فارغُ القَلْبِ، واجْعَلْ شَهْوَتَكَ لقولِ الشِّعْرِ الذَّريعةَ إلَى حُسْنِ نَظْمِهِ؛ فإنَّ الشَّهْوَةَ نِعْمَ المُعِينُ. وجُمْلَةُ الحالِ أَن تعتبرَ شِعْرَكَ بِما سَلَفَ مِن شِعْرِ الماضينَ، فما اسْتَحْسَنَ العُلَماءُ فاقْصِدْهُ، وما تَرَكُوهُ فاجْتَنِبْهُ؛ ترشد إن شاءَ اللهُ تعالى" العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط4 1972، 2/ 114-115.

وردت وصية أبي تمام في سياق توجيه البحتري التلميذ إلى الطريقة السليمة لنظم الشعر ورصف مبانيه وإتقان نسجه، وتتضمن توجيهات وضوابط عامة يمكن للمطبوع أن يسترشد بها في مجال إبداعه الشعري، وهي في عمومها موجهة إلى كل مبدع شاعر، لما فيها من نصائح

الشعر وآدابه ونقده" (ت456هـ)، وفي شرح مقامات الحريري للشريشي(ت619 هـ)، وفي "تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع المصري (ت654هـ)، وفي "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني(ت684هـ)، وفي "خزانة الأدب وغاية الأرب" لابن حجة الحموي(ت837هـ).

وفيها وصايا نقدية، ونعتبرها مرحلة جاءت بعد مرحلة الإشارة واللُّمعِ. أخذت تجتمعُ لتُكَوِّنَ صحفا نقدية ووصايا اتسعت فيما بعد في كتب عديدة.

-"**مقدمة جمهرة أشعار العرب**" لأبي زيد القرشي (ت170هـ).

-"**الفصاحة**" لأبي حنيفة بن داود الدينوري.

-"**البلاغة**" للمبرد (ت286هـ).

-"**قواعد الشعر**" لثعلب (ت291هـ).

-"**البلاغة والخطابة**" لجعفر بن أحمد المروزي.

-"**التشبيه والتمثيل**" للفضل بن نوبخت (ت311هـ).

-"**صناعة الكلام**" للجاحظ ضمن رسائله.

-'**البرهان في وجوه البيان**" لابن وهب الكاتب (ت 335هـ).

وتعليمات وتوجيهات ذهبية تتناول الأمور الجوهرية التي تخص شروط الإبداع الصحيح، ولعل ما يميز الوصية هو اختزالها اللفظي واقتصادها اللغوي، لكنه اقتصاد فيه ثراء وغنى من حيث الزخم التوجيهي الذي تزخر به.

ومما ينصح به أبو تمام تلميذه السير على طريقة القدماء في النظم وتوظيف الصور، واختيار الألفاظ، وبناء القصيدة والتزام عناصر عمود الشعر" فما استحسنه العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه"، فأبو تمام يدعو تلميذه الذي ظهرت عليه علائم النبوغ الشعري أن يحذو حذو الأقدمين ويسير على منوالهم. فضلا عن نصحه له بتخيّر الأوقات التي يكون فيها متهيئا نفسيا وفكريا ليخرج ما في جعبته من إبداع صاف براق، لا تشوبه شائبة ضعف أو تكلف أو تكلان، فهو يوصي تلميذه بقوله" تخير من الأوقات وأنت قليل الهموم ،صفر من الغموم"، وهنا يضع أبو تمام يده على جوهر الإبداع، ذلك أن خلو الذهن من المشاغل والمشاكل، والقلب من الهموم والبلبال، يجعله قادرا على القول في غير اعتياص، مقبلا عليه إقبال الظمآن على الماء إذا توفرت دواعيه وبواعثه ،ومعلوم أن الهموم والغموم كما تهيمن على الذهن فهي تشغل القلب، و تعكر صفو الخاطر ، و تنغص على النفس فتخيم بظلالها السوداء على المبدع ،وتمنع نتيجة لذلك شمس إبداعه من الإشراق، وجمرته من التوقد، وسيله من التدفق، وحتى لو كتب له التدفق فإنه سيخرج أعرج معاقا لفظا ومعنى. كما تطرق إلى بعض الأغراض الشعرية مبينا للمنصوح ضوابطهما اللفظية والمعنوية. ينظر: سعيد بكور، قراءة في وصية أبي تمام للبحتري، الموقع: http://www.odabasham.net. تاريخ الاطلاع عليه: 3 جانفي2021. سا: 20:23.

-"**الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**" للحسن بن بشر بن يحيى الآمدي (ت 370هـ).

-"**المفصل في البيان والفصاحة**" لمحمد بن عمران المرزباني (ت 384هـ).

-"**المطابق والمجانس**" لمحمد بن الحسين بن الأصبع بن الحرون (ت 390هـ).

-"**تهذيب الفصاحة**" لأبي سعيد الأصفهاني.

-"**الوساطة بين المتنبي وخصومه**" للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني(ت392هـ).

-"**سر الفصاحة**" لابن سنان الخفاجي (ت466هـ).

-"**قانون البلاغة**" لأبي طاهر محمد بن حيدر البغدادي (ت571هـ).

-"**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**" لابن الأثير (ت637هـ).

-"**الايضاح في علوم البلاغة**" للخطيب القزويني (ت739هـ).

-"**الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز**" ليحيى بن حمزة العلوي (ت 749هـ).

-"**عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**" لبهاء الدين السبكي (ت773هـ).

وفي هذه المرحلة الأخيرة استقلت البلاغة بوصفها مجالا معرفيا للأدب والفن، وانقسمت إلى علوم هي: علم البيان وعلم المعاني وعلم البديع.

وفي العصر الحديث صُنفت كتب بلاغية عدّة، نذكر:

-"**جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**" للسيد أحمد الهاشمي

-"**علوم البلاغة**" لأحمد مصطفى المراغي

-"**البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع**" لعلي الجارم ومصطفى أمين.

والواقع أن قضية البلاغة بين الفنية والعلمية كانت محط نقاش علمي مستفيض بين نقادنا الذي انقسموا حِيالها إلى من يدافع عن كونها فنّا يقتضي استعدادا فطريا، وموهبة صافية، وحسّا سليما في تذوق الجمال الفني... وإلى من يراها علما تحكمه أصول ونواميس، ويتوسل بمناهج مضبوطة ذات خطوات وإجراءات صارمة. وقد كان هذا الرأي محط هجوم من قبل من نافح عن البعد الفني لبلاغة العرب، متهمين أشياع الرأي الثاني بإبعاد تلك البلاغة عن فطريتها وانطباعيتها، وإغراقها – بالمقابل – في خضمّ من الأطر والضوابط المنهجية الجافة، وإنْ كان كثيرون يرون علمية البلاغة صفة مدح لها، وليست عيبا قادحا[1].

[1]فريد أمعضشو، الدرس البلاغي في الجامعة المغربية: الواقع والمأمول.

2-مفهوم البلاغة والفرق بينها وبين الفصاحة

-مفهوم البلاغة:

-جاء في الكليات للكفوي أنّ البلاغة مصدرُ بلغ الرجل إذا صار بليغا، وبلغ: وصل إلى الغاية. ووُصفَ الكلام بالبلاغة لأنه ينتهي إلى قلب السامع فيفهمه. بلغَ يبلغُ بُلوغا وبلاغا: وصلَ وانتهى. وأبلغَ إبلاغا، وبلّغ تبليغا، والمبالغة أن تبلغ في الأمر جهدكَ.

و «أشدّ عبارات الأدباء في حد البلاغة وأوفاها بالغرض قولهم: البلاغة هي التعبير عن المعنى الصحيح لما طابقه من اللفظ الرائق من غير مزيد على المقصد، ولا انتقاصٍ عنه في البيان». فكلما ازداد الكلام في المطابقة للمعنى وشرف الألفاظ ورونق المعاني وتجنب الركيك المستغثّ كانت بلاغته أزيد.

-البلاغة مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال؛ أي موافقة الكلام للحال. والكلام الفصيح هو الكلام المؤلف من الألفاظ الفصيحة، الخالي من التعقيد والعيوب.

-في الفرق بين البلاغة والفصاحة:

-فصح الرجل فصاحةً، والفصاحةُ البيانُ. وفَصُحَ اللبن إذا أُخذت عنه رغوته، أو ذهبَ عنه اللبأ. وأفصح كلامه إفصاحا، وأفصحَ تكلّم بالفصاحة، وأفصحَ الصبيّ في منطقه إفصاحا، إذا فهمت ما يقول في أول ما يتكلّم. وتفاصحَ تكلّفَ الفصاحة، والفصيحُ المنطلقُ اللسان.

فالفصاحةٌ، والحالُ هذه، فيها معنى الظهور والوضوح والكشف والإبانة.

قال تعالى على لسان موسى: ﴿وأخي هارون هو أفصحُ مني لسانا﴾ [سورة القصص، الآية 34]

وأمّا بلاغة الكلام فمطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال أن يُعبَّر بالتنكير في محله، وبالتعريف في محله، وما أشبهَ ذلك، وعموما أن يطابق الغرض المقصود، فارتفاعُ شأن الكلام إنّما يكون بهذه المطابقة، وانحطاطُه بعدمِها.

وقيلَ البلاغة أخص من الفصاحة، إذ يوصف بهذه الأخيرة اللفظ المفردُ والكلام والمتكلم، فيقال: كلمة فصيحة، وكلام فصيح، ومتكلم فصيح. أمّا البلاغة فيوصفُ بها الأخيران فقط، يُقال كلمة فصيحة، ولا يُقال كلمة بليغة.

وفي الحقيقة، فإنّ المنحى المنطقي الفكري والفلسفي للبلاغة نتجَ عنه إشكالٌ كان محلَ جدلٍ مستمر، ومن ذلك اختلافهم في رُتَبِ البلاغة، أهيَ متناهيةٌ أم لا؟. كما نتجَ عنه اختلافهم في تحديدهم لمفاتيحها المفهومية والاصطلاحية، وظواهرها الأسلوبية المعيارية. فقد اختلف مثلا في تفسير معنى الفصاحة والبلاغة (في كون الموصوف بهما الكلام أو المتكلم، أو إلى توافقهما في نعتهما للكلام والمتكلم، نحو قولكَ: "شاعر فصيحٌ أو بليغٌ، وقصيدة فصيحةٌ أو بليغةٌ)، ولذلك

نجد الخطيب القزويني (وهو من بلاغيي القرن السابع الهجري، وفي زمنه استقرت البلاغة بعلومها الثلاثة المعروفة) لا يسلم بكل ما قيلَ في المصطلحين، فيختصرُ الفرقَ بينهما في كون الفصاحة صفة تقعُ للمفرد والتراكيب، بخلاف البلاغة التي لا تكونُ إلا في التراكيب، نحو قولك: كلمة فصيحة، ولا يُقال كلمة بليغة.

1-فصاحة الكلمة:

يحصِرُ فصاحة الألفاظ الواردة في ثلاثة جوانب، هي: خلوصها من تنافر الحروف، ومن الغرابة، ومن مخالفة القياس اللغوي.

والتنافر أن تثقلَ الكلمة في السمع، ويعسرَ النطق بها لتقاربِ مخارج حروفها، نحو قول أعرابي حينَ سُئلَ عن ناقته: تركتُها ترعى الهُعْخُعَ، أي النبات.

ومثل قول امرئ القيس:

غدائرُهُ مُستشزراتٌ إلى العُلا--- تضل العقاص في مثنى ومرسل

الغدائر: الذوائب، واحدتها غديرة، ومستشزرات: مرفوعات. وأصل الشزرِ الفتلُ على غير جهة لكثرتها، وقوله (إلى العلى) إلى ما فوقها، والعقاص: جمع عقيصة، وهو: ما جمع من الشعر ففتل تحت الذوائب، وهي مشطة معروفة يرسلون فيها بعض الشعر ويثنون بعضه، فالذي فُتِل بعضُه على بعض هو المثنى، والمرسل: المسرح غير المفتول.

ومن الألفاظ الثقيلة أيضا: الظش، وهو الموضع الخشن.

والغريب من الألفاظ: الوحشيّ*، أي غير المتداول في اللغة الشائعة، ومن ذلك ما رُويَ عن عيسى بن عمر النحوي حينَ سقوطه من حماره، واجتماع الناس حوله: "مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذي جنة، افرنقعوا عني". أي اجتمعتم عليّ، فتنحوا.

وقد ترجعُ غرابة الكلمة إلى كثرة تخريجاتها وتأويلها، نحو قول العجاج: (وفاحمًا ومرسنا مسرجا). فقد اختلفَ في معنى "مسرجا"، فقيلَ هو من قولهم للسيوف "سريجية" منسوبة إلى قين يُقال له سريج. وقيل: يريد أن أنفه في الاستواء والدِّقة كالسيف السُّريجي. وقيلَ: من السراج، أي أنه في البريق كالسراج.

وأمّا انتفاء الفصاحة فبخروج الألفاظ عن القياس، كما في قول الشاعر:

*قالوا قديما: إذا كانت اللفظة حسنة مُستغربة لا يعلمها إلا العالم المبرّز والأعرابي القحّ فتلك لفظة وحشية (أو حوشية؛ والحوشي من الكلام وحشيهُ وغريبه وما نفرَ السمع منه). وقالوا أيضا: إيّاك وتتبّع وحشي الكلام طمعا في نيل البلاغة، فإنّ ذلك هو العيّ الأكبر، وعليكَ بما سَهُلَ، مع تجنّبك ألفاظ السفل. راجع في هذا الشأن: النوادر لابن الأعرابي – النوادر للشيباني –الجمهرة لابن دريد –الغريب المصنّف لأبي عبيد – شوارد اللغة للصغاني.

الحمد لله العليّ الأجلِ---الواحد الفرد القديم الأوّل

فالقياس: "الأجلّ" بالإدغام، وإنما فُكَّ للضرورة. كما أنهم يعدون المنكر من الألفاظ في إيقاعها الموسيقي غير فصيح، لأن النفس لا تستلذُّ من الأصوات إلا ما فيه قدرٌ من التناسق الجمالي، نحو قول أبي الطيب: "كريم الجرشي شريف النسب"؛ أي كريم النفس.

ودرجةُ فصاحة الألفاظ تُحدّد بالقياس إلى درجة استعمالها، ومن يستعملها.

2-فصاحة الكلام:

وأمّا فصاحة الكلام فخُلُوصُه من ضعفِ التأليف، نحوَ أن يتصل بالفاعل ضمير يعود على المفعول المتأخر، ومثله لا يجوز في العربية إلا بضعفٍ. ومن التنافر عسر النطق بكلمات لعسرها على اللسان، ومن التعقيد أن يكون الكلام غير ظاهر الدلالة على المراد منه، وذلك إمّا لتعقيدٍ في اللفظ أو في المعنى، ومن حسنه خلوصه من كثرة التكرار وتتابع الإضافات.

وعليه فإنّ فصاحة الكلام/ التراكيب في خلوها من بعض الظواهر، مثل:

-تنافر الكلمات: ويكون في التراكيب الثقيلة على اللسان، كأن تتكرر ألفاظها وتتابع، كما في هذا البيت:

وقبرُ حَرْبٍ* بمكان قَفْرٍ --- وليس قُربَ قبرِ حَرْبٍ قَبْرُ.

-ضعف التأليف: وهو خروج الكلام عن قواعد اللغة المشهورة مثل قوانين النحو، ويقع في التقديم والتأخير، وخاصة في رجوع الضمائر، نحو قولكَ: "ضربَ غلامه زيدا". أو كقول الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كِبَرٍ---وحسنِ فعلٍ كما يُجزى سنمارُ

-التعقيد: سواء التعقيد اللفظي أو المعنوي. واللفظي اختلالُ ترتيب الألفاظ تقديما وتأخيرا، فيكون الكلام خفي الدلالة، فالتعقيد اللفظي في مثل: ما قرأ إلا واحدا محمد مع كتابا أخيه. والمعنوي ألا يُفهَمَ المعنى إلا بعد عناء وتفكير طويل، ومن ذلك قول القيس:

وأركبُ في الروع خيفانة---كسا وجهها سعف منتشر

الخيفانة: الجرادة، من الخيفان، الجراد إذا صارت فيه خطوط مختلفة، واحدته: خيفانة بالهاء.

*حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي القرشي الكناني، كان من حنفاء مكة وأكابرها. وهو والد الصحابي أبو سفيان و جد الصحابي معاوية وهو أمير قريش وكنانة. دفن وقد قتلته حية في مكان لا جار فيه ولا دار.

ويصف هنا الفرس الخفيفة السريعة. وقد عدوا التعبير بالسعف (سعف النخيل) المنتشر عن شعر ناصية الفرس تعقيدا معنويا. لأنه يخالف المعروف في الفرس الخفيف.

وقول المتنبي:

الطِّيب أنت إذا أصابك طيبه--- والماءُ أنت إذا اغتسلتَ الغاسِلُ

فهذا معنى بديع أخفاه سوء النظم، والتقدير: إذا أصابك الطّيب فأنت طيبٌ له، وإذا اغتسلت بالماء فأنت الغاسلُ له*

3-فصاحة المتكلم:

وأمّا فصاحة المتكلم فملكَة يقتدرُ بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيحٍ.

تركيب لما سبق:

نستنتج مما سلف أنّ البلاغة للمعنى والفصاحة للفظ، فيقال: كلمة فصيحة وكلام فصيح ومتكلم فصيح، ويقال: كلام بليغ ومتكلم بليغ، ولا يقال كلمة بليغة، فكل بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا. يقول الخفاجي: «والفرق بين الفصاحة والبلاغة أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيلَ فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا».

إنّ البلاغة أن يأتي المتكلم بكلام فصيح مطابقا لمقتضى الحال، فيكون قد راعى شروط الفصاحة في الكلام وشروط البلاغة في مقاضى الحال، وهي حيثيات موقف الخطاب وظروف ومتعلقات كل ذلك، فلكل مقام أحوال تناسب لونا من البلاغة، ونوعا من الكلام دون سواهما، وقد أورد ابن رشيق عشر صفحات في تعريف البلاغة في كتابه العمدة

---

* وكما أوردوا مواضع لفساد النظم ساقوا شواهد لمحاسنه، من ذلك:

هو المرء أبدت له الحادثا ت عَزْما وشيكاً ورأياً صليباً
تنقّل في خلقي سؤدد سماحا مُرجَى وبأسا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخا، وكالبحر إن جئته مُستثيبا

يقول الجرجاني :(فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا في نفسك، فعُد فانظر في السبب واستقصِ في النظر، فإنّك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنّه قدّم وأخّر، وعرّف ونكّر،وحَذَف وأضمر، وأعاد وكرّر، وتوخّى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو، فأصاب في ذلك كلّه ، ثمّ لطّف موضع صوابه ، وأتى مَأتىً يُوجِبُ الفضيلة)- دلائل الاعجاز ،ص: 85.

أفلا ترى أنّ أول شيء يروقك منها قوله : (هو المرء أبدت له الحادثات) ، ثمّ قوله تنقّل في خُلُقي سؤدد (تنكير السؤدد) وإضافة الخلقين إليه ، وفي (فكالسيف) وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ ، لأنّ المعنى لا محالة : فهو كالسيف . ثمّ تكريره (الكاف) في قوله (وكالبحر). ثمّ قَرَنَ إلى كلّ واحد من التشبيهين شرطا جوابُهُ فيه، ثمّ أخرج من كلّ واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر (صارخاً ومُستثيباً).

في محاسن الشعر وآدابه، وما اكثاره من ذلك إلا لأنه يعرض في كل تعريف خاصية من خصائصها، وتكاد لا تنتهي لكثرتها، نذكر منها: البلاغة معرفة الفصل والوصل، البلاغة إصابة المعنى وحسن الايجاز، البلاغة حسن العبارة مع صحة الدلالة، البلاغة حسن الاستعارة[1]...إلخ

أثر الفرق الكلامية في تأصيل البلاغة: المجاز عند المعتزلة أنموذجا

الفرق الكلامية: وهي فرق (نِحلٌ) نشأت بسبب الاختلاف في مسائل دينية أو مذهبية أو سياسية، ومنها الجَهَمِية والقدرية والمعتزلة والمرجئة.

أمّا المعتزلة –وهي ما يهمنا هنا–فتنسبُ إلى واصل بن عطاء الذي اعتزل الحسن البصري في المسجد عند الاختلاف معه في مسألة الايمان والكفر، فسُمِيَ معتزلا، وقد ذهبَ إلى القول بالمنزلة بين المنزلتين. ومبادئ المعتزلة خمسة: العدل والتوحيد والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما عنايتهم بالمجاز* فقد نشأت أساسا من مبدأ التأويل، وهو تفسير اللفظ بغير معناه الموضوع له، بل بصرفه إلى معنى آخر بناءً على دليل. وكانت بدايات التأويل من قبل الجهم بن صفوان (ت128هـ)، والذي إليه تُنسبُ الجهمية، وهو الذي تلقى آراءه من الجعد بن درهم (ت125هـ)، والذي كان ينزعُ إلى التأويل وتحكيم العقل لرد شبهات اليهود والنصارى والمانوية والدهرية، فانتقلَ التأويل من الجهمية إلى المعتزلة. وتعدّ مسألة المنزلة بين المنزلتين أول مسألة نشأت في الاعتزال.

واللفظ عند المعتزلة إذا وردَ وظاهره التشبيه وجبَ تأويله، لأن اللفظ يتعرض للاحتمال، ودليل العقل بعيد عن الاحتمال، أي احتمال اللفظ أكثر من معنى، مثل: اليد: لفظ يحتمل النعمة والقدرة. ولمّا كان التأويل وسيلة في توجيه دلالات النصوص إلى ما يوافق الأدلة العقلية ومقررات الأصول الخمسة، وكان المجاز الأداة اللغوية الأساس التي يستندُ إليها التأويل، وقد توسَّعَ المعتزلة في العناية بالمجاز والتأويل بالبحث فيهما.

ومن كتب المعتزلة:

-"**تأويل متشابه القرآن**" لبشر بن المعتمر (ت210هـ).

-"**متشابه القرآن**" لجعفر بن الحرب (ت236هـ).

-"**تفسير القرآن**" لأبي بكر بن الأصم (ت200هـ).

---

[1] من محاضرات البلاغة للأستاذ محمد عاشوري.

* المجاز: كل كلمة أريد بها غير ما وضع لها في اللغة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. والعرب كثيرا ما تستعمل المجاز وتعده من مفاخر كلامها، فهو دليل الفصاحة ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات. ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص94.

-"**تفسير القرآن**" و"**متشابه القرآن**" لأبي عليّ الجبائي(ت303هـ).

-"**البيان والتبيين**" و "**كتاب الحيوان**" للجاحظ (ت255هـ): وهو أول من جعل مصطلح المجز مقابلا للحقيقة، واستعمل مصطلح الاستعارة، مثل جعل المطر بكاء سحاب.

-"**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**" للزمخشري.